

علي محمود طه شاعر العروبة والإسلام

بقلم / د. حسن فتح الباب



علي محمود طه

كم من أغنيات عذبة شجية، رددتها قيثاره الشعراء، منذ وعى الإنسان سحر الكلمة؛ تمجيداً للحرية، وحثاً للأفراد والجماعات على الدفاع عنها، والتضحية في سبيلها، بالمال والنفس (والجود بالنفس أقصى غاية الجود) كما يقول الشاعر العربي القديم. وتحمل قصائد الحرية ألمع الصفحات في التراث الإنساني، إذ تغنى المبدعون في مختلف العصور بهذه القيمة العليا، التي لولاها لما قامت الحضارات، ولما قطع الإنسان شوطاً بعيداً في طريق التقدم والازدهار، كي يتحقق مغزى استخلاف الخالق العظيم ابن آدم، وهو عمارة الأرض.

الحديوي توفيق الذي استنجد بالإنجليز، وباءت الثورة بالفشل، ونفى زعمائها ومنهم البارودي إلى جزيرة سرنديب (سيري لانكا الآن).

وجاء شوقي ليخلف البارودي على عرش الشعر العربي، فكان خير خلف لخير سلف، إذ أضاف أوتاراً جديدة إلى قيثاره الإبداع، منها وتر الحرية الذي أجاد العزف عليه. وكان هو وشاعر النيل حافظ إبراهيم فرسي رهان في هذا المضمار، فأصبحا في عصرهما حداة الركب الشادي بقيم الحرية والبطولة، وحفز الهمم لمقاومة الاحتلال الإنجليزي، ومناصرة الشعب في ثورة ١٩١٩م التي قادها الزعيم سعد زغلول، والتغني بقضايا التحرر في العالمين العربي والإسلامي.

وقبل أن يرحل شاعرا مصر الكبيران كانت قد نشأت مدرسة شعرية جديدة هي مدرسة أبولو التي اختارت في نشأتها الأولى أمير الشعراء ليكون رئيساً لها، ولكنها اتخذت لنفسها مساراً خاصاً وهو ما سمي بالتيار الرومانسي الذي يقوم على التعبير عن الوجدان دون أن يغفل قضية الحرية.

لذلك كانت حرية العقيدة مبدأ أساسياً في الإسلام، وفي سبيل إقرار هذا المبدأ نزلت الآيات البينات، وجاءت الأحاديث النبوية الشريفة، تدعو إلى العمل به، والذود عنه، والجهاد في سبيل إعلائه، ونشره في الأرض. وقد تسابق شعراء الدعوة الإسلامية في نظم القصائد التي تحض على مقاومة المشركين الذين يصدون عن سبيل الله، ويؤذون من اختاروا عقيدة التوحيد للتحرر من الشرك والبهتان والطغيان.

ويستعيد شعر الحماسة نصرته في الشعر الحديث، على يد محمود سامي البارودي رب السيف والقلم، ورائد مدرسة الإحياء الشعري، فقد بث في هذا الشعر الروح التي خمدت في عصر المماليك والعثمانيين، بفضل موهبته الغنية، وقريحته الوقادة، وإطلاعه على عيون الشعر العربي في أزهى حقبه. وكانت تجربته العسكرية زناداً قدح لهيب عبقريته الشعرية، إذ اشترك في حرب إقريطش (جزيرة كريت في البحر الأبيض المتوسط) التي نشبت بين الجيش المصري الموالي للخلافة العثمانية وبين الجيش اليوناني. كما اشترك في الثورة العربية سنة ١٨٨١ ضد

صوت أصيل في شعر الحرية :

ومن أنبغ أبناء هذه المدرسة الشاعر علي محمود طه، الذي لم تصرف نزعة الوجدانية عن معاشة بني وطنه وأمه في أحزانهم وأفراحهم، وتجاوبه معهم في آمالهم. ولا غرو أن يتضمن ديوانه عدداً من القصائد التي غنى فيها للحرية والأحرار، إذ كانت مصر وكثير من أقطار الوطن العربي الكبير ترزح تحت نير الاحتلالين الإنجليزي والفرنسي بعد الحرب العالمية الأولى، وفرض الحلفاء هيمنتهم على البلدان التي كانت تستظل براية الدولة العثمانية.

وقد أرهف أدوات الشاعر الفنية في التعبير عن الحرية نزوعه إلى الثورة على كل ما يكبل الفرد من قيود وأغلال، تحول دون ازدهار ملكاته وطاقاته، فذلك النزوع سمة تتوافر في الشعراء الوجدانيين جميعاً، وتتجلى ساطعة في إنتاجهم. ويكفي أن نذكر في هذا المقام محمود حسن إسماعيل، وإبراهيم ناجي، وأبا القاسم الشابي، وسواهم من شعراء العروبة الذين جددوا في شعر الحرية بما ابتدعوه من صياغات جديدة وصور مستحدثة وإيقاعات هامسة، وإن كنا لا نعدم قصائد ذات نبرة عالية في شعر أصحاب هذه المدرسة.

ومن أهم ما يميز شعر علي محمود طه في الحرية، خلوه من نزعة التشاؤم والحزن واليأس، التي نعرفها فيما صاغه من تأملات في أحوال النفس والطبيعة والكون، انعكاساً لإحساسه بجهامة الواقع وانتهاء حياة الإنسان بالموت طال بها الزمن أم قصر، وما يكابده المرء من محن في رحلته على هذه الأرض. ذلك أن شاعرنا يدرك أن الحرية جنة محفوفة بالمكاره، وقد تصل ضريبتها إلى التضحية بالحياة، ولكن ثمرتها تستحق كل ما يبذل في سبيلها، فمن يخطب الحسنة لم يغلها المهر كما يقول الشاعر القديم. وهذه الشمرة هي استرداد الأرض المغتصبة ووقاية العرض من الدنس، وهي الأمن والسلام، والعزة والكرامة للشعب والأمة. فإذا رويت شجرة الحرية بالدماء فسوف تزهر غداً وروداً على وجنات الأطفال. أما الشهداء فسوف يلاقون ربهم بوجوه نضرة مستبشرة، وينعمون بجنة تجري من تحتها الأنهار وبذكر باق في الأجيال.

وهذه المسرات والمباهج هي التي تضيف على شعر الحماسة عند علي محمود طه وأقرانه من شعراء الحرية مسحة من التفاؤل والأمل في الغد، فهم إذ يحرضون المناضلين في سبيلها على الصمود في وجه أعدائهم، ويستحثون الرقود على اليقظة لدرء الذلة عنهم، يتوسلون إلى ذلك بتصوير نعمة الجهاد وما سوف يجنيه أصحابه وأهلوه وأبنائهم من بعدهم من ثمرات العزة والسودد. وتلك هي المعاني التي تفصح عنها قصائده الوطنية والقومية والإنسانية. فهو يقول في قصيدة (الأجنحة المحترقة) :

وإذا دعتك الحادثات فلَبَّها
ليضنَّ بالأعمار كل معاجز
ليثر على القضبان كل معذب
هذا الزمان الحر ما لشعوبه
لم تبصر الأمم الحياة على سنى
كالنار في شفق الدماء القاني

هكذا يرى الشاعر أن القرن العشرين هو عصر حرية الشعوب، إذ ثارت فيه الأمم المحكومة بسلاح المستعمرين على أغلالها، وانتفضت كالمارد جموعها، لتحدى القهر والاستعباد، فالحرية هي النور الذي يضيء طريق البشرية، والنار التي تذيب الأصفاد، بل هي جوهر الحياة، ولولاها لأطبق الظلام على الأرض وساكنيها، وتحولت إلى عدم، والشهداء هم الذين يحولون دون هذا المصير التعس. ومن ثم يقول علي محمود طه في هذه القصيدة :

لولا الضحايا الباذلون دماءهم
طوت الوجود غيابة النسيان

الهجرة في سبيل الحق والحرية :

وحين تشرق شمس العام الهجري الجديد ١٣٦٢ هـ نجيش خواطر الشاعر، فيستعيد في ذاكرته ما بذله المهاجرون مع رسول الله ﷺ من تضحيات في سبيل رفع الراية الإسلامية الخفاقة بمآثر دين الحق والعدل والحرية :

هجرت أوطانها واغتربت
أنفت عيش الرقيق المجنى
صفحات من صراع خالد
في مثالي من المبدأ سام
وأبت ذل الضمير المستضام
ضمنت كل فخار ووسام

لم تمنعه نزعتيه الوجدانية من معاشة أمته أحزانها وأفراحها

من المؤمن الضعيف كما جاء في الحديث النبوي الشريف، ولا مكان للبيد الأذلاء :

أحرار دهرهم المستيقظون لها ومن عصافهم الموتى الأرقاء
شدوا على العروة الوثقى سواعدكم لا يصد عنكم بالخلف مشاء

ويعود الشاعر في هذه القصيدة إلى وصف العصر بأنه عصر التحرير، وهو يناشد أقطاب العرب أن ينقذوا أرض المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله، بعد أن دنست حماه أقدام المحتل الغاشم.

فاقصروا حقوق إخوانكم تستجير به
أحلبها ذهب الشاري وحرّمها
حربان أنختها أدمعاً ودماً
تطلعت لكم ولهى أليس لها
أخت لكم في صراع الدهر عزلاء
عصر به حرّر القوم الأذلاء
تنزوها مهجة كلمى وأحشاء
على يديكم من العلات إبراء؟
حملتها العهد فيها عن أبوتكم
إن البنين لحمل العهد أكفاء

وفي شهر سبتمبر سنة ١٩٤٤م تبلغ سمع الشاعر أنباء مبشرة بأن الحرب العالمية الضروس توشك أن تضع أوزارها، فكتب قصيدة تصف شعوره بيوم الهدنة المرتقبة، وتنبض آياتها بالأمل، في عالم جديد ترفرف عليه أعلام الحرية :

أوحقاً قربت من متهاها
أغداً تستقبل الدنيا منهاها
هذه المحنة وأنجاب دجاها؟
حرّة تشدو بمكنون طواها؟
وأرى حرية عز حماها
لم يضع عقباه من مات فداها؟

ويهدف علي محمود طه للحرية حافزاً القوي إلى الكفاح والنضال في سبيل قضية الشعوب العربية، في الوقت الذي تتقرر فيه مصائر الشعوب بعد الإعلان عن انتهاء الحرب، وإنشاء منظمة الأمم المتحدة. وقد ضمن قصيدته التي نظمها في هذا المقام بعنوان (إلى أبناء الشرق) شعوره بالارتياح في وعود الخلفاء، بعد أن ماطلوا العرب في الجلاء عن أراضيهم، وهم الذين مددوا إليهم يد العون في الحرب، واستنهض عزائم

لم تتح يوماً لجبار طغى
بل لداع أعزل في قومه
زلزل العالم من أقطاره
وبنى أول دنيا حرة
تسع الدنيا على ألوانهم
أو لباغ فأتك السيف عرام
مستباح الدم مهدور الدمام
بقوى الروح على القوم الطغام
برثت من كل ظلم وأثام
لم تفرق بين آرى وسامي

ومن التغني بالذكريات العزيزة التي يبعثها العام الهجري ينتقل الشاعر إلى تصوير مأساة الحاضر في الديار الإسلامية، فيعجب كيف ارتضى أهلها ظلم المستعمرين الأجانب، وهم أصنام البشر التي يحني لها المستذلون جباههم، ورسول الله الكريم لم يطلق صبراً على الأصنام الحجرية والخشبية فحطمها تحطيماً. وكيف يتجاهل هؤلاء المستعمرون الطغاة أن العصر هو عصر الحرية، كما سبق أن قال الشاعر في قصيدته (الأجنحة المحترقة)، وإلام يقعد المسلمون عاجزين عن الذود عن حماهم المستباح واسترداد حرياتهم المغتصبة :

وعجيب صنعهم في زمن
بشروا الناس بدنيا ويحهم
تسلب الناس حجاجهم وترى
أبصر الأعمى به والمتعامي
أي دنيا من دمار وحمام
أم الأرض قطيعاً من سوام

ويختتم القصيدة بتحريض الأمة على التحرر من أثقالها، والجدود في سبيل استعادة أمجاد الأمة، والتبشير بغد مشرق لا ضيم فيه ولا مهانة، فالظلم ساعة والعدل إلى قيام الساعة :

قل لها يا عام لاهنت ولا
ذاك مجد لم ينله أهله
بل بالآلام وصبر وضى
فاستعدي لغد إن غداً
واجمعي أمرك لليوم الذي
كنت إلا مهد أحرار كرام
بالتمني والتغني والكلام
ودموع ودم حر سجام
نهزة السباق في هذا الزحام
يحمل البشرى لعشاق السلام

شدو على معزف التضامن العربي :

ويخاطب علي محمود طه زعماء الشعوب العربية الذين التقوا في شهر سبتمبر من عام ١٩٤٤م بالإسكندرية لتكوين الجامعة العربية، محيياً روح التضامن والإخاء التي جمعت شملهم، ومذكراً بترائهم العريق في الحرية، حاثاً لهم على التماس أسباب القوة، فلا حياة للضعفاء، والمؤمن القوي خير

تصل بين الأرض التي انبثق فيها فجر الإسلام وأرض الكنانة
التي ازدهر فيها :

وللنيل أمواج يثين صبابه بأفراح دور فوقه ومغان
يُحيي بك الشعب الحجازي شعبه وفيك يحيي القبله الحرمان
أفي مصر أم بطحاء مكة يومنا هنا وطن أم هاهنا ووطنان؟
وتلك قطوف النيل دانية الجنى أم أن قطوفاً للرياض دوان؟

وناشد ملوك العرب ورؤساءها أن يجمعوا أمرهم، حتى
يحققوا تطلع شعوبهم إلى نيل الحرية والاستقلال، ويجبروا
قادة الدول الأوربية على الوفاء بعهودهم .

أناشدكم والشرق بين مطامع تهدده في حوزة وكيان
أرى حلفاء الأمس لم يحفلوا به ومازال من خلف الوعود يعاني
وما قر في ظل السلام بعهد ولا ناز من حرية بضمنان

وقد ظل علي محمود طه وفيًا لأمته في السراء والضراء،
فلم يدع حدثًا تاريخيًا يقع، أو محنة تصيب هذه الأمة، أو
مؤتمرًا سياسيًا يعقد دون أن يضطلع برسائلته الشعرية في إذكاء
لهيب المشاعر بما كان يلقيه في المحافل أو ينشره في الصحف
من قصائد حماسية تمجد الحرية وتدعو إلى وحدة الصف
والهدف، وتحث على التضحية .

وكانت قضية تحرير فلسطين لحناً سياسياً في معزفه، إذ
استلهمها عديداً من القصائد أو المقاطع التي تتضمنها قصائده
السياسية، ومنها تلك التي كتبها في يوم الحداد العام الذي
أعلنته الدول العربية في الثاني من نوفمبر عام ١٩٤٥م،
احتجاجاً على وعد بلفور المشؤوم الذي وقع في مثل ذلك
اليوم من سنة ١٩١٧م، وأعطى به من لا يملك وعداً لمن لا
يستحق، وقد صور علي محمود طه في الأبيات الآتية التي
يخاطب فيها فلسطين الصراع الذي خاضته الجيوش الإسلامية
منذ الفتح، وهزيمة الرومان في عهد الخليفة عمر بن الخطاب،
حتى تحرير القدس من برائن الصليبيين في عهد صلاح الدين :

ألا يا ابنة الفتح الذي نور الثرى وطهر دنيا من طغاة وضلال
وأكرم قومًا فيك كانوا أذلّة فحررهم من بعد رق وإذلال
هو الشرق ألقى من يديه قيوده فلا تحسبه في قيود وأغلال

وهو يندد في ختام هذه القصيدة مثلما ندد في قصيدة

تميز شعر شاعر الجندول بخلوه من التشاؤم واليأس .

الحكام العرب وشعوبهم، للمطالبة بتنفيذ المواد المنصوص
عليها في ميثاق الأمم المتحدة، والتي تقضي بحق الشعوب
المستعمرة في تقرير مصيرها وهو ما يعني حصول العرب على
حريتهم المستلبة .

السنا بني الشرق من يعرب أصولاً سمت وجباها تعالى؟
أجئنا نسايل عطف الحليف ونرقب منه الندى والنوال؟
نصرناه بالأمس في محنة تمادى الجبابر فيها صيالا
فكيف تناسى حوارية غداة السلام وأغضى ومالا؟
أرداً الحقوق لأربابها وأعفاهم من طلاب سؤالا؟
ورفت على الأرض حرية تالق نوراً وتندى ظلالا؟

ويخاطب الحليف الغربي ليدكره بما قطعه على نفسه من
عهد، ويستتجزه وعده بتحرير الشعوب، وينعى عليه تسليمه
فلسطين لشذاذ الآفاق من الصهاينة :

وعدت الشعوب بحق المصير فما لك تقصى وغلى ارتجالا؟
أنتصب من أهلها أرضهم وتسلم للغير نهباً حلالا؟
أليست لهم أرضهم حرة يسودون فيها الدهور الطوالا؟

كما ينعى على فرنسا عدوانها على المواطنين الأبرياء
العزل من السلاح في سوريا ولبنان، لمطالبتهم بإجلاء جيوشها
عنها، وكان الأحرى بها بعد ما ذاقته من ويلات المحور ألا
تصب جام غضبها على من ناصروها في حربها ضد النازية،
وأن لا يكون جزاؤهم منها جزاء سمنار .

وحين حل بمصر في يناير ١٩٤٦م موكب الملك
عبد العزيز آل سعود - رحمه الله - حياه الشاعر بقصيدة
عنوانها (لقاء ودعاء) ضمنها آمال العروبة في التضامن القومي
الكفيل بتحرير أقطارها المحتلة، ونوه بالأحداث التي تحيط
بالشرق العربي من أدناه إلى أقصاه، وكانت الثورة تعم كثيراً
من البلدان العربية والآسيوية . كما أشاد بالعروة الوثقى التي

صور شاعرنا مأساة الديار الإسلامية ، وحث أهلها على طرد مستعمرهم

الأدب العربي خاصة وفي الأدب العالمي عامة :

أخي جاوز الظالمون المدى فحق الجهاد وحق القدا
أنتركهم يغصبون العروبة مجد الأبوّة والسؤددا
وليس بغير صليل السيوف يجيئون صوّناً لنا أو صدى

أبطال الحرية وشهداؤها في الشام :

ومن أشجى الترانيم التي رجّعها علي محمود طه على
ناي الشعر القومي مرثيته للقائد السوري يوسف العظمة ،
الذي سقط في ساحة الجهاد سنة ١٩٢٠م وهو يواجه جيش
فرنسا ، يفوق جنوده أضعافاً في العدد والعتاد دفاعاً عن دمشق
قلعة العروبة . وكان استشهاد أول جذوة نفخت نارها في
الثورة الوطنية السورية ، وقد نشر الشاعر مرثيته هذه بعنوان
(شهيد ميلون) في الذكرى السادسة والعشرين ، وقد مزج
فيها جماليات الطبيعة الدمشقية بأيات الفداء التي تمثلت في
ذلك البطل ، وشجب خُلف فرنسا وعدّها بالخلاء عن سوريا
وشنها هجوماً مفاجئاً على دمشق الفيحاء ، وخلد في أبياته
شهيد الحرية البطل وبشر المجاهدين بالنصر المبين :

أسعى إليه بكل ما جمعت يدي وبكل ما ضمت إليه جوانحي
وهو الجدير بأن أحيي باسمه في الشرق كل مناضل ومنافح
من كل حر نافض مما اقتنى يده ووهاب الحشاشة مانح
قل للدعاة المحسنين ظنونهم بالغرب ماذا في السراب لمانح؟
لا تغرينكم وعود مخالف يطأ الممالك بادعاء مصالح
يا يوسف العظما غرسك لم يضع وجناه أخلد من نتاج قرائع
قم لحظة وانظر دمشق وقل لها عاد الكمي مع النفير الصادح
ودعك يا بنت العروبة فانهضي واستقبلي الفجر الجديد وصافحي

لقد تحررت سورية من ربة الاستعباد بفضل تضحيات
رجالها ، فجاش في خاطر الشاعر أن يحيي استقلالها بمناسبة
مرور عام على جلاء الجيوش الأجنبية عنها ، بقصيدة عنوانها

(إلى أبناء الشرق) بنكت أوروبا المنتصرة في الحرب بعودها
للغرب ، ويسخر من خداعها الذي لم يعد ينطلي على من
ينظر ويسمع ويعي .

وفي استقبال مصر سنة ١٩٤٦م للمجاهد الإسلامي
الكبير مفتي فلسطين الشيخ أمين الحسيني إثر هربه إلى مصر
من متفاه في باريس ، جاشت خواطر الشاعر فحياه بقصيدة من
عيون شعره مشيداً فيها بالحرية والأحرار :

تعانق العائد المنفي في بلد حماء للحر إعزاز وإكرام
ديار مصر ومن يلجأ لساحتها فقد حمته من الأحداث آجام
ويحطم القلم العاني بحومتها أصفاده ويرق الماء والجمام
قد أقسمت لا ينال الدار مغتصب حتى وإن شرقت بالنار أعلام
في الله في الحق في الإسلام كل دم يسيل فيها وجرح ليس يلتام

وقد ختمت بالمعنى الذي تردد كثيراً في شعره الوطني ،
وهو تحذيره للشرق من مكر الغرب ، وفصح مقصد أهله
الدنيء ، وحفز العرب إلى استمرار الجهاد وإعادة سيرة آبائهم
الأبطال رواد الحرية في الآفاق :

يا شرق يا شرق لا تخذلك دعوتهم واقبض بدأ فحديث الحقد أوهام
أكان غير عيون الزيت دافقة من قلبك الغض يجريهن سجام؟
وكان غير أنابيب يحسوط بها ضلوع صدرك قهار وظلام
قد قسموك مطارات وما عملوا إلا لحرب لها في الكون إضرار
أكنت غير القذى في غير تضحية إن هم عليك بسرب للردى حاموا
وأنت يا أيها الفادي عروبتك إسلم فديتك لا غبن ولا دام
جهاذك الحق مظلوماً ومغترباً وحي لكل فتى حر وإلهام

لقد كانت فلسطين الجرح النازف في قلب الأمة العربية
والإسلامية ، فلا غرو أن تنضح أفشدة الشعراء حزناً على
ابتلائها بأعداء الإنسانية وقتلة الأنبياء ، وأن ينتكئ هذا الجرح
كلما حاقت بالأمة نازلة . وقد كان علي محمود طه في طليعة
الشعراء الذين عبروا أصدق تعبير وأبلغه عن نكبة فلسطين
ومأساة أهلها المشردين في الأرض ، والقابعين في الخيام تحت
رحمة لجنة غوث اللاجئين وقسوة الطبيعة في زهمير الشتاء .
ومن ذا الذي ينسى رائحته التي غناها محمد عبد الوهاب
فجرت على كل لسان وترددت أصداؤها في آفاق المشارق
والمغارب ، حتى غدت من عيون شعر المقاومة والجهاد في

قضية فلسطين نالت مساحة كبيرة من قصائد شاعر الجندول ..

(سوريا وعيد الجلاء) أودعها مشاعر البهجة التي غمرت نفوس العرب بحصول القطر الشقيق على حريته بعد معارك مجيدة ضحى فيها المناضلون بأرواحهم فداء لكل ذرة من تراب الوطن، وتجديداً للفروسية العربية. وتردد في مطلع القصيدة وفي ثناياها كلمة الأحرار، تعبيراً عن المكانة السامية التي يشغلها عشاق الحرية في سجل التاريخ، كما يذكر الشاعر أمجاد بني أمية الذين اتخذوا دمشق عاصمة لدولتهم، فكانت منارة للحضارة العربية وحصناً حصيناً للإسلام في مواجهة الرومان الذين سقطت قلاعهم تحت ضربات الجيوش الإسلامية التي حملت راية الإيمان بالله الواحد القهار، واستعذبت الموت في سبيل النصر وهي تهتف «الله أكبر»:

هناك باسمك تحت الشمس أحراراً يندى هواك على هاماتهم غارا
دمشق يا بلد الأحرار أي فتى لم يمتشق فيك سيفاً أو يخض نارا
زكت أمية في أعراقه وجرت دماً يروى الثرى أو يغسل العارا

ولكم تهدجت أنفاس الشاعر حزناً على رحيل الأحرار، واتقدت قريحته بذكريات بطولاتهم، فسأل يراعه شعراً يخلد أمجادهم، ويستحث الأجيال الجديدة على الاقتداء بهم، حتى تستمر أمتهم قادرة على أن تلد الناصر في أعقاب نائره. وها هو ذا يرسل لحناً شجياً، وقد هزه نعي الأمير شبيب أرسلان، فقيد العروبة والإسلام، وأحد أقطاب الحرية والمقاومة العتيدة التي لم يُفل سلاحها كثرة الطامعين المتكالبين كالجراد على الأرض العربية، فاستجمع ما ورثه من آبائه من قوة نضالية سرت في شرايينه مسرى الدماء، وتقدم الصفوف شاهراً سيف الحرية ومستعيناً بالله ناصر الحق:

رزء العروبة فيك والإسلام رزء النهى وفجيرة الأقلام
هو ماتم الأحرار في متوئب بصفوفهم مستقتل مقدم
وقفوا الحياة على الجهاد وقربوا دعة النفوس وصحة الأجسام
إرث الحدود الصيد أنت وهبته قلماً يصاول دونه ويحامي

وشباب مهدور الدماء مجاهد في الله عن عرب وعن إسلام
لقد جمع الأمير أرسلان مثل البارودي والأمير عبد القادر الجزائري بين السيف والقلم، فكان الفارس المجلى في حومة الوغى لا يشق له غبار، والأديب النابغة في ساحة البيان، فكم نضاً يراعه دفاعاً عن الدين والأرض والعرض، لا يرده عن مرامه بأس المغيرين الطغاة، ولا يثنيه الحرص على ما كسب من ثروة وما ورث من إمارة عن البذل والفداء، فالثروة عنده هي الحفاظ على مجد العرب، وشرف الإمارة هو التضحية في سبيل رفعة الإسلام، وإنه لظافر بالحسينيين، طيب الذكر بعد الرحيل وضرب المثل الأعلى للأبناء والأحفاد، وتلك عقبي الصالحين.

أما العدو المين فعاقبته الخذلان ولعنة التاريخ، ولن يتفعهم مكرهم السئ وحشودهم الضارية، فلسوف تنهار كالعهن المنفوش قلاعهم:

وإذا الحصون الشامخات حجارة منشورة والنار سحب قتام
وإذا المجاهد تحت غار جهاده طهر اليدين مخضب الصمصام
روح يهز الشرق من أعماقه وسنى يمزق عنه كل ظلام
ويد تعانقه برغم منية وفم يقبله بغير حمام

تمجيد أحرار المغرب العربي :

مد علي محمود طه جناحه الشعري إلى أفق المغرب العربي، فغنى للحرية والأحرار، ومن روائع شعره في هذا المجال قصيدته في تحية عبدالكريم الخطابي أمير الريف في مراكش، الذي دافع مع إخوانه عن كرامة العرب ومجد المسلمين، وأسر قائد الجيش الأسباني وهزم «بيتان» القائد الفرنسي، ثم وقع في قبضة العدو بعد انتصارات متوالية في الميدان، فنفته فرنسا إلى جزيرة نائية في المحيط الهادي، ثم أمرت بابعاده إلى منفى جديد. وفي أثناء رسو السفينة التي كانت تقله بميناء بورسعيد استطاع أن يغادرها، وأوته مصر وقد أبت أن تعيده إلى أسر فرنسا. وتتوهج قصيدة (بطل الريف) بأعذب أنغام الحرية، كما تنساب في ثناياها أصداً شعر الحماسة في أزهى العصور العربية، فهي تبدأ بالسخرية من

دعوى السلم التي يجأر بها الخلفاء بعد انتصارهم، وتذكيرهم بأنهم مدينون بعلمهم وحضارتهم للعقل العربي والعدل الإسلامي :

إن تجهلوا فسلوا به آباءكم أيام شمع عدالة ورغادا
هل أبصروا حـرية إلا به أو شيدوا الحضارة أوتادا
في المغرب الأقصى فتى من نورها قدحت به كف السماء زناداً
سلته سيفاً كي يحرر قومه ويزيل عن أوطانه استعبادا
لو أنصفوا قدروا بطولة فارس لبلاده بدم الحشاشة جادا
نادى بأحرار الرجال فقربوا مهجمات وراءه استشهادا
يدعو لحق أو لإنسانية تأبى السجون وتلعن الأصفادا

استلهم ثورة الحرية في أندونيسيا :

لم يقصر علي محمود طه غناؤه على العالم العربي، بل امتد ليشمل العالم الإسلامي في آسيا، فدافع عن حق أندونيسيا في الحرية، وذلك في قصيدته (أندونيسيا) التي وصمت الاستعمار الهولندي الذي جثم على صدر شعب مجيد، أنشأ على جزائره امبراطورية إسلامية، جاهد في سبيل الحفاظ عليها أبشع أنواع الاستعمار، فمن الغزو البرتغالي إلى الغزو الهولندي ثم الغزو الياباني.

وقد كتب الشاعر تلك القصيدة في مطلع العام الهجري الجديد، يحيي ثورة الملايين من المسلمين المجاهدين في أندونيسيا، وقد هبوا يعلنون سخطهم على الاستعمار الهولندي، الذي ألقى القبض على أحمد سوكارنو زعيم الحزب الوطني الأندونيسي، المطالب بالاستقلال، وإخوانه الأحرار، ونفاهم خارج البلاد، وذلك عشية انتهاء الحرب العالمية الثانية، وإعلان الرئيس الأمريكي روزفلت ميثاق الحريات الأربع، ومنها حرية الشعوب وحقها في تقرير مصيرها واختيار نظام حكمها، ورفض المستعمرين الهولنديين تطبيق هذا الميثاق، وتدخلت إنجلترا بأساطيلها وطائراتها إلى جانبهم لقمع ثورة الشعب الأندونيسي الذي أبى أن يخضع لسلطان دولة يبلغ عدد شعبها تسعة ملايين، وهو الذي يزيد عدده على سبعين مليوناً في ذلك الحين.

ويصور الشاعر في أبياته الطبيعة في أندونيسيا شمساً وسحاب وشهباً وصحارى وجبالاً، وقد ثارت مع المجاهدين وتخضبت بدماء شهدائهم، وتعالى صوت الحرية والفداء في الأرض والسماء، يُشهد العالم الغربي على بشاعة الجريمة التي ترتكبها بعض دوله، ويستثير نخوة أصحاب الحقوق المغتصبة والضمائر الحية للوقوف صفاً واحداً مع شعب أندونيسيا :

سحاب حمر أم سماء تضرم أم الشمس يجري فوق صفحتها الدم
على مشرق الأصباح من أندونيسيا سيوف تغني أو حثوف ترنم
رويداً بناء الكون ما تلك ثورة على الحق بل روح على الحور ينقم
هو الشرق ثارت روحه فهو لجة من النار تذكياها رياح تهزم
ينادي بعهد بين يسم وليلة أضيع وحق يستباح ويهضم
وحرية موءودة طال شوقها إلى النور يطويها ظلام مخيم
مكبلة الكفين مغلوله الخطى تداس ويؤبى أن يبرح لها فم

ويسترسل الشاعر في قصيدته الثائرة ناقماً على الغرب جنائتهم المنكرة على شعب آمن، لا ذنب له إلا مطالبته بحقه في التحرر :

فما لك بالأسطول والجيش واثباً على أمة عزلاء بالسلم تحمل
وتنقض مثل النسر فوق سمائها بأجنحة تغزو النجوم وترحم
الاقبت في أجوائها غير طيرها على نسائم في الغصون تهيم؟
وأبصرت إلا أمة من محمد تنازعها (الميكادو) غصباً و(ولهم)

مد يده بقصائده تحية للأحرار في المغرب العربي الشقيق

وهو يشير في البيت الأخير إلى اليابان التي يرأسها إمبراطور يسمى (الميكادو) وإلى ألمانيا التي يتزعمها ملكها (ولهم)، وكانت الدولتان تشكلان محوراً خاض الحرب العالمية الأولى ضد أوروبا التي انضمت إليها الولايات المتحدة الأمريكية، وكان التنازع حول ثروات المستعمرات في إفريقيا وآسيا وأسواقها، فكانت هذه الحرب الضروس التي اصطلت

الشعوب بنارها . ويذكر الشاعر في ختام قصيدته الأوربيين
بفضل المسلمين على حضارتهم وحفظهم للمواثيق ، على
خلاف في ذلك مع الغرب الذي خان حلفاءه في الشرق :

على أننا نبني على الحقد والهدى مآثر لا تبلى ولا تنهدم
ونرعى موثيق الوفاء كما رعت أوائلنا لسنا على البذل نندم
من الصين حتى ساحل الغرب عالم به المسلمون الأولون تقدّموا
بنوه حضارات ضخماً ولم يزل له أثر في الكون أسمى وأضحى
نظام من الشورى وعهد من الرضى أياديه شتى حسنيات وأنعم

من وحي حرية الوطن الأم :

استأثر ديوان علي محمود طه بباقة من أروع
الشعرية في باب الحماسة خص بها وطنه ، وصور كفاحه
لإجلاء الجيش البريطاني المحتل ، إذ لم تتوقف انتفاضات

تأخذه نفسه شوقاً إلى ديار المسلمين كلما غاب عنهم ..

شعب وادي النيل طوال سبعين عاماً عن المطالبة بالحرية ، رافعاً
شعار (الاستقلال التام أو الموت الزؤام) . وكم جاد العمال
والطلاب وسائر الطوائف رجلاً ونساء بدمائهم فداء للوطن .
وتفرد قصيدة (مصر) بين أشعار علي طه السياسية بصوتها
الغنائي المتموج بين الأسى والحزن ، والدال على قوة الانتماء
إلى الكنانة أرضاً وشعباً ، وكأنها أغنية حب وأنشودة حرية
وفداء ، وقد استهلها بقوله مخاطباً مصر :

هوى لك فيه كل ردى يحب فديتك هل وراء الموت حب
فديتك مصر كل فتى مشوق إليك وكل شيخ فيك صب
ويحلم بالندى طفل فطيم وكل رضية في المهد تحب
أراك وكلما وليت وجهي أرى مهجاً لوجهك تشرّب
عليها من دم الفادين غار له بيدك تضفير وعصب
حمتك صدورها يوم التنادي ووقت الليالي وهي حرب
تحررت الشعوب فكل شعب طليق والمجال اليوم رحب

فلا تقفوا بحريات شعب وآمال له للمجد تصبوا

وتبين من الأشعار التي صاغها علي محمود طه في
شبابه الأول هذه الروح المتأججة وجداً بمصر ، فقد عاصر ثورة
١٩١٩م إذ كان في السادسة عشرة من عمره حين نشبت هذه
الانتفاضة الخالدة في تاريخ الشعب المصري ، فأشربت نفسه
بعشق الحرية ، وتدل قصيدته (في صفوف المجاهدين) التي
نشرها سنة ١٩٢٣م على نزعة الوطنية الأصيلة ، وفيها يصف
عودة سعد زغلول قائد الثورة من منفاه في جبل طارق وجزيرة
سيشل ، فتحدث عنه بضمير الغائب ثم بضمير المخاطب ، وقد
قالها بمناسبة الذكرى العشرين لوفاة الزعيم :

الأعزل المنفي فارق قيده ورمى بأسره وذل إسماره
قم حدث التاريخ غير مكذب يا من غدا التاريخ من أثاره
أنت المصالح عن حماك فصف لنا حرب الفدائيين من أنصاره
والأرض كيف تصد عن رحمانها والكون كيف يضيق عن أحراره

وقد اختتمت القصيدة بتمجيد ثورة ١٩١٩م التي اندلعت
نارها في كل أنحاء البلاد بعد أن تنصل الإنجليز من وعدهم
بالخروج من مصر ، التي قدمت لهم الرجال والغلال في
حربهم ، بعد أن أعلنوا من جانب واحد وضعها تحت الحماية ،
وكانوا لم يغادروها منذ سنة ١٨٨٢م ، وظلوا يماطلون في
الجلاء عنها . وقد أبدع الشاعر في تصوير ملحمة الجهاد في
سبيل الوطن ، وكيف واجه الثوار رصاص الغاصبين
بصدورهم العارية ، وانتزع الفلاحون قضبان السكة الحديدية
في الصعيد حتى يوقفوا تقدم جنود سلطة الاحتلال إلى
الجنوب لإخماد الثورة :

الشعب مثل البحر إن يغضب فما تقف السدود الشم في تياره
ورجاله الأبطال ويح رجاله لم يهدأوا والظلم في تهداره
طلعوا على حصن الظلام فزحزحوا أحجاره ومشوا إلى أغواره
قدفوا به غضب السرائر فانظروا للحصن يسقط في يدي ثواره
أمسى ورايات الجهاد خوافق حمر منشرة على أسواره

ويستبد بهذا الشاعر العاشق الملهم شوقه إلى وطنه كلما
غاب عنه ، فهو يناجيه في أثناء رحلته إلى أوروبا صيف عام
١٩٤٦م ، والسفينة تقله بعيداً إلى الغرب ، وتذهب نفسه
حسرات على ما أصاب مصر من هوان بعد أن وطئت جنود

وكيف يشهر الأخ سيفه في وجه أخيه ؟!!!

بريطانيا أديعها الطاهر في الحرب العالمية الثانية، وانتهكوا
حرماتها، وسلبوا حريتها العصماء :

يا بحر ما بك؟ ما بي؟ مصر ما بعدت ولي إليها بهذا الشعر إسرائ
عجبت والعصر حر كيف في يدها هذا الحديد له حز وإدما
أقسمت لا رجعت بي فيك جارية إن لم نجى عن جلاء القوم أنباء
وأن مصر بحر ياتها ظفرت فأهلها اليوم أحرار أعزاء
أقسمت إلا إذا عادت بفتيتها فهب مستقتل عنها وفداء

لقد كان علي محمود طه عميق الوعي بالحرية، مدركا
لأبعادها المختلفة، فدعا إلى حق الشعوب في افتكاك
حريتها من المستعمر الأجنبي، كما دعا الساسة الحاكمين
إلى احترام حق المواطنين في حرية الرأي والتعبير، سواء
أكانت الدولة مستقلة أم تحت الاحتلال. ومن ثم يعد من
أوائل الشعراء الذين دافعوا عن حقوق الشعوب وعن
مبادئ الديمقراطية الحقبة والقواعد الدستورية التي تنص
على التزام الحكومات بهذه المبادئ وسلامة تطبيقها. وهو
يشجب الاستبداد في الأبيات الآتية من قصيدته (في عالم
الذكرى)، التي رثى بها محمد صبري أبو علم باشا زعيم
المعارضة في مجلس الشيوخ، ونقيب المحامين وسكرتير
عام الوفد المصري :

حامى القضاء وحامي العدل في بلد لا يأمن العدل فيه سطوة الجاني
ذخائر الوطن الغالي يرتلها على مسامع أجيال وأزمان
أحرار مملكة أرسوا دعائمها على أساس من الشورى وأركان
لم يرهبوا سوط جلاد ولا حفلوا بسيف باغ ولا أصفاد سجان

كما دعا إلى مقارعة الحجة بالحجة، إذا نشب خلاف
سياسي بين أبناء الوطن الواحد، فلا ينبغي أن يشهر الأخ
سيفه على أخيه ويغتاله بسبب خصومة فكرية أو سياسية،
فاختلاف الرأي لا يفسد للود قضية كما يقول شوقي. ومن
ثم يدين قاتل أمين عثمان باشا الذي أطلق عليه الرصاص

لاتهامه بمالأة الإنجليز أعداء الوطن، وذلك في قصيدة
(مصرع سياسي) التي يدافع فيها عن حرية الرأي أيًا كان
مذهب صاحبه :

لا تقولوا طائش في رأيه إنما الرأي من الغدر براء
إنما الناس لهم آراؤهم وهمو الأحرار فيها الطلقاء
وعلى ودوبر وهدى لهم فيها فراق ولقاء
غير ما مس دما فاجهر به وتحمد الحاكمين الأقوياء
واذكر الأوطان لا تأخذ بما يكتب الحقد ويمليه العداء
ليس من مصر ولا من أهلها مزهق الأرواح أو مجري الدماء

وتشف قصيدة (الطريد) عن أسى عميق لما يلقاه
صاحب الرأي الحر من اضطهاد الحاكم المستبد في بلده،
وتحتاج هذه القصيدة إلى تحقيق تاريخي يكشف عما إذا كان
الشاعر يقصد نفسه كما نرجح أم يقصد غيره، فهو لم
يفصح عن المناسبة التي أوحى إليه بقصده الذي اتسم
بمسحة قصصية، وبدا كما لو كان انعكاساً لحدث واقعي :

ولي قصة يشجي القلوب حديثها ويعجز عن تصويرها اليوم واصف
دعوت إلى حرية الرأي معشراً ثقافتهم ضرب من العلم زائف
إذا المحوانور الحقيقة أغمضوا وقالوا: ألا أين الضياء المشارف؟

وتنتهي القصة الشعرية بالنفي الاختياري، كأنما
يستجيب صاحبها لقول الله تعالى: ﴿ألم تكن أرض الله
واسعة فتهاجروا فيها﴾، إذ يرسل المطارد إلى بلد آخر يأمن
فيه على نفسه ولا يضيق صدر أهله بما يبديه من رأي،
يبتغي به وجه الحقيقة :

أتيت إلى هذا المكان تهزني إليه عهود للشباب سوائف
أودعها قبل الفراق وإنني أفارقها والقلب لهفان كاسف
إلى حيث ينمو الرأي حرأ تذبذبه من الحق فيها ألسن وصحائف
لعل بلاداً ما علنتي سماؤها ولا نهبت فيها للذكرى عوارف
أعيش بها حر العقيدة هائفاً برأيي إما أسعدتني المواقف

ذلك هو الشاعر الملهم علي محمود طه، أنبغ أبناء
مدرسة أبولو، ومغني الحب والجمال والفن، وعاشق
الحرية الذي هزت أهازيجته الوجدان، ورددها الأحرار في
كل مكان من عالما العربي والإسلامي.

عصفورة التذكر

شعر / مرعي بن محمد القرني

وغردي في خاطري واطربي
وابكي على يومي وما حل بي
واليوم ينعى اليوم قبلي أبي

* *

يا زهرة تزهو بكف الصبي
يا جنة المصطاف للمجتبي
حوراء ليست من إماء السبي

* *

البشرى بأن مازلت لم تخطبي
أغرقتها في دمعها الصيب

* *

من مشرق الأرض إلى المغرب
أعيش بين الناس كالأجرب

* *

كنت تمنين بأن تنجـبي
هلا أتيت ساءة وانهبي
وكيف عاش النمر بعد الظبي
عن غيه أو كيف ذل الأبـي
ويقطف الريحان إلا الغـبي

* *

وبعثـر الأوراق في المكتب
بكرأ وليس البكر كالثـيب

* *

على غصون البان للمعجب
أحدو بها في رحلة الموكب

* *

« أقوى من النسيان ذكرى » الظبي

عصفورة التذكر لا تتعبي
ترنمي للأمس غني له
فالأمس كان الهمس أنشودة

* *

أبها وما أبهاك من طلعة
يا رونق الحسن وإشراقه
ويا عروساً غرة حرة

* *

يا أيها العذراء زفي لنا
مذ فارقت عيناك تلك الربى

* *

عصفورة التذكر طيري بنا
ونذكريني ما مضى إنني

* *

سنين عمري لو عقلت فما
طفولة الأمس وعاماً مضى
هلا روى الراوي حديث الصبا
وكيف أن الظبي لم يرتدع
من يغرس الزقوم في بيته

* *

يا شاعراً قد سل أقلامه
كيما يناجي بنت أفكاره

* *

يا طائراً يشدو بألحانه
ناشدتك الرحمن أنشودة

* *

قالوا تناس الظبي واسل الهوى